المقاربة السيميائية

1 – الأصول التاريخية للمصطلح:

يعود تاريخ كلمة "**سيميولوجيا**" إلى الأصل اليوناني(sémeion)، وتعني العلامة. وكلمة(logos) التي تعني الخطاب، أي التفكير والحجة في موضوع معيّن، لتصبح الكلمة بمعنى العلم و(sémeion/ logos)، بمعنى علم العلامة[1].

ونجد مصطلح (Sémiotica) في اللغة الأفلاطونية مندمجة مع الفلسفة، أو فن التفكير. وللعمل، فإنّ السيميوطيقا اليوناني لم يكن هدفها إلاّ تصنيف علامات الفكر لتوجيهها في منطق فلسفي شامل.

ويقول أمبرتو إيكو:« إن الرواقيين[2](stoiciens) هم أول من قال بأن للعلامة دالاً ومدلولاً. ولقد ارتطزت السيميائيات المعاصرة على اكتشافاتهم الأولى. وعندما أقول بدراسة العلامة – يقول إيكو – فإنني أقصد كل أنواع العلامات وكل أنواع السيميائيات، اي ليت العلامة اللغوية فقط. وإنما أيضاً العلامات النتشرة في شتى مناحي الحياة الاجتماعية. فاللباس ونظام الأزياء أو المودة السائدة» في مجتمع ما، تشكل علامات وأنظمة علامات تختلف من مجتمع إلى إلى آخر، مثل آداب التحية في اليابان، علاقات الزواج وتقاليده، نظام المطبخ، وإشارات المرور كل هذا يشكل علامات وإشارات دالالات.

وهؤلاء، إذن، (الرواقيون) – حسب إيكو دائماً – اكتشفوا أنّ الاختلاف في أصوات اللغات وحروفها، أي شكلها الخارجي الذي يدعى بالدال ويصل إلى أن هؤلاء البرابرة (أي الذين لا يتكلمون اليونانية كلغة أم) قد سبقوا دي سيوسير في اكتشاف الفرق بين الدال والمدلول.

كما تظهر أصول هذا المصطلح مع القدسي "أوغسطين" – قديس جزائري – حسب "إيكو" فهو أول من طرح السؤال التالي: ماذا يعني أن نفسر ونؤول؟ وهكذا راح يشكل نظرية التأويل النصي (تأويل

---

[1] - برنار توسان، ما هي السيميولوجيا، ترجمة: محمد نظيف، إفيرقيا الشرق، الطبعة الأولى، 1994، ص 9.

[2] - الرواقيون، هم أصلاً من العمّال الأجانب في أثينا، فأصلهم الحقيقي يعود إلى الكنعانيين الفنيقيين القادمين من تخوم صيدا إلى غزة فالبحر الميت إلى شمال إفريقيا.

النصوص المقدسة). وتكمن أهمية هذا القديس (354 – 430) في تأكيده على إطار الاتصال والتواصل والتوصيل عند كعالجته لموضوع العلامة.

ويختفي المصطلح لمدة طويلة، ولا نجد إلا في دراسة للفيلسوف الإنجليزي "جون لوك" (Johon Locke) 1704/1632، في القرن السابع عشر في كتابه بعنوان"مقال حول الفهم البشري" وحسب [حنون مبارك] فمصطلح سيميوطيقا (sémiotiké) عنده يعني به العلم الذي يهتم بدراسة الطرق والوسائط التي يحصل من خلالها على معرفة نظام الفلسفة والأخلاق وتوصيل معرفتهما. ويكمن هدف هذا العلم في الاهتمام بطبيعة الدلائل التي يستعملها العقل بغية فهم الأشياء، أو نقل معرفته إلى الآخرين. وبالتالي فهو يحمل دلالة مشابهة لتلك التي قدمتها الفلسفة اليونانية الأفلاطونية.

*** تحديد مفهوم السيميولوجيا عند سوسير:**

لقد ارتبط ظهور هذا العلم في بداية القرن العشرين بمنبعين اثنين هما: العالم اللساني السويسري فرديناند دي سوسير(Saussure)(1913/1857) الذي يعتبر الأصل في تسمية هذا العلم بالسيميولوجيا، والفيلسوف الأمريكي تشارلز ساندرس بورس(Charles sanders peirce) (1914/1838) الذي يعتبر الأصل أيضاً في تسمية هذا العلم بالسيميوطيقا الذيسبق الحديث عنه.

*** دي سوسير:** لقد أشار سوسير في كتابه "دروس في اللسانيات العامة" – وهو تجميع للمحاضرات التي كان يسجلها طلبته في الجامعة – إلى ولادة علم جديد يدرس العلامات. وقال بهذا الصدد:« اللغة نظام من العلات التي تعبّر عن الأفكار ويمكن تشبيه هذا النظام بنظام الكتابة وأبجدية الصم البكم، والطقوس الرمزية وصيغ المجاملة والتأدب، والإشارات العسكرية وغيرها من الأنظمة. ولكنه أهمها جميعاً... ويمكننا أن نتصور علماً يدرس حياة العلامات في داخل الحياة الاجتماعية؛ علماً قد يشكل فرعاً من علم النفس الاجتماعي، وبالتالي فرعاً من علم النفس العام. وسوف نسمي هذا العلم بالسيميولوجيا(sémiologie) وهي لفظة مشتقة من الكلمة الإغريقية (sémeion) بمعنى العلامة.

والسيميولوجيا أو علم العلامات ربما يوضح لنا ماهية العلامات والقواعد التي تحكمها، ولأن هذا العلم لم يكن بعد، فلا أحد منا قادر على أن يتوقع ما سيكون عليه. ولكنه علم له الحق في الوجود. ولقد وُضِعت لبن من لبناته.

وعلم اللغة ليس إلا قسماً من علم العلامات العام، وسوف تنطبق القوانين التي يكتشفها على علم اللغة، وهذا العلم الأخير: علم العلامت سوف يُحَدَّد مجاله تحديداً جيداً في إطار مجموع الظواهر الإنسانية وسيكون من مهام علم النفس تحديد المكان الصحيح لعلم العلامات.

من مهان علم النفس تحديد المكان الصحيح لعلامات، أما مهمة اللغوي فهي اكتشاف ما يجعل من اللغة نظاماً خاصاً متميزاً بين مجموع الظواهر السيميولوجية – وهذه المقولة سوف نتعرض لها فيما بعد – وهنا أوجّه الانتباه إلى أمر واحد: إذا ما كنتُ قد نجحت في وضع علم اللغة بين العلوم فهذا عائد إلى أنني ألحقته بعلم العلامات...»[3].

ويخلص "سوسير" إلى القول:« إن قضية اكتشافنا للطبيعة الحقيقية للغة، علينا أن نعرف الجوانب المشتركة بين كل الأنظمة العلاماتية، ومن ثَمّ فإنّ العناصر التي قد تبدو هامة – لأول وهلة – مثل (دور أعضاء النطق) سوف تحظى باهتمام ثانوي إذا ما أدت إلى عزل اللغة عن الأنظمة الأخرى. وهذا الإجراء يقوم بدور أكبر من مجرد توضيح القضية اللغوية، فبدراسة الطقوس والعادات كعلامات سوف تلقى ضوءاً جديداً – فيما أعتقد – على تلك الظواهر ونبرز الحاجة إلى إدخالها في مجال علم العلامات ونفسرها بقوانينه »[4].

*** تعريف العلامة عند سوسير:**

يُعدّ "سوسير" العلامة اللغوية كياناً ثنائي المبنى يتكوّن من وجهين يشبهان وجهي (العملة النقدية) أو صفحة من الورق، ولا يمكن الفصل بينهما. فالأول: هو **الدال**(signifiant)؛ أي الصورة الصوتية (image acoustique) التي تُحدثها في دماغ المستمع سلسلة الأصوات التي تلتقطها أذنه وتستدعي إلى ذهن هذا المستمع صورة ذهنية أو فكرة أو مفهوماً(أكثر تجريداً من الصورة الصوتية).

والثاني: هو **المدلول**(signifié) وهو التصور الذهني أو ما يسمى بالمفهوم(concept). فالعلامة هي وحدة النظام، وهي العنصر اللساني الذي يتكون من صورة سمعية ومفهوم؛ أي الفكرة تقترن بالصورة السمعية. فمثلاً كلمة(امرأة) هي علامة لسانية مكوّنة من صورة سمعية، وهو الإدراك النفسي لتتابع الأصوات (ا،م،ر،أ،ة)، ومن مفهوم، هو مجموع السمات الدلالية (حي، ناطق، عاقل، إنسان، أنثى،

[3] - سوسير، رائد علم اللغة الحديث، تر: محمد محسن عبد العزيز، دار الفكر العربي، القاهرة 1990، ص 66.
[4] - المرجع نفسه، ص 67.

راشد...). فالعلامة اللغوية، إذن، تتمثل في العلاقة بين "المفهوم" والصورة السمعية (الصوتية)، وهي علاقة تستبعد الجانب المادي بشقيه.

ولقد أوضح "دي سوسير" أن الصورة السمعية لا يعني بها المادة الصوتية الخالصة، بل الأثر السيكولوجي للصوت؛ أي الانطباع الذي يثيره في الذهن، كما أنه يعني بالمفهوم الصورة الذهنية للشيء المتحدث عنه، لا الشيء ذاته.

وللعلامة اللغوية حسب تعريف سوسير صفة جوهرية هي الطبيعة الاعتباطية (arbitraire du signe) فالعلاقة بين الدال والمدلول علاقة اعتباطية عرفية، فمدلول "**قلم**" مثلاً ليس بينه وبين لفظه أية علاقة ضرورية مباشرة، فليس ثمة سبب جوهري يفسر لنا لما أُختير هذا الدال بعينه، ولم يختر دال آخر ليشير إلى الشيء نفسه. فليس هناك صلة طبيعية بين اللفظة والمفهوم، إذ المتكلمون بالعربية مثلاً يمكنهم استبدال هذا اللفظ (**قلم**) بلفظ آخر متى تعارفوا عليه واجتمعوا على ذلك.

- **بعض المراجع:**

- برنار توسان، ما هي السيميولوجيا، ترجمة محمد نظيف.

- سوسير، رائد علم اللغة الحديث، تر: محمد محسن عبد العزيز.